هذه الجماهير بالسؤال هل ان العراق قادر على هزيمة دول التحالف؟ وما هي صورة العالم العربي الذي سيؤسسه الانتصار العراقي؟ عندئذٍ، لا نجد الاجابة المحددة بتاتاً، بل نجد اجابة مستمدة من تشوقات وتطلعات مختزنة في الوجدان الشعبي العربي، لا تعبّر عن حقيقة الواقع الراهن[١٠]. وهنا تكمن المفارقة. فالجماهير قومية في مواقفها ورافضة للواقع الاقليمي، ولكنها محكومة بأنظمة اقليمية، ممارسة وفكراً، او اقليمية ممارسة وقومية على مستوى الشعارات. والأمر سيّان. فالجماهير ترفض الواقع الذي فرض عليها ولم تشارك في صنعه، وفي الوقت عينه عاجزة عن تغييره، منتظرة الفارس او الزعيم الملهم الذي ينوب عنها في تغيير هذا الواقع[١١]؛ ترفض الحرب ضد العراق لأنها تحسّ بالابعاد الحقيقية لها، ولكنها عاجزة عن فعل شيء في مواجهة هذه الحرب؛ تريد ان تشارك وتساهم في حل الازمة بكل ابعادها، ولكنها تفتقد الاطر الموجِّهة والتنظيمات القائدة والمثقف الملتزم، لكي تأخذ بيدها وتحوّلها الى قوة فاعلة في مجريات الاحداث، وتنقلها من موقع المتفرج الى موقع الفاعل والمانع للحدث.

لقد عاشت الجماهير العربية، خلال الازمة، حالة من الاضطراب والضياع والحيرة؛ لا تعرف كيف تتصرف؛ ولم يسعفها في ذلك لا انظمتها ولا احزابها وقواها السياسية ولا مثقفوها. في مقابل ذلك، كانت الانظمة العربية المشاركة في الحرب ـ وحتى بعض المدعية بالحياد ـ تسير ضمن مخطط واستراتيجية محددة متفق عليها مسبقاً؛ ولكنها لم تكن استراتيجية قومية عربية، بل استراتيجية غربية تسعى الى اقامة نظام عربي متجاوب مع متطلبات نظام كوني جديد، تلعب فيه الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية، دور القيادة، والانظمة العربية، والثالثية عموماً، دور الكومبارس[١٢] والتابع.

بعد توقف الحرب ـ ونعتقد بأن ذلك هدنة مؤقتة، لأن المنطقة العربية مقبلة على مرحلة ستشهد فيها حروباً وقلاقل خطيرة ـ بدأت حسابات الربح والخسارة تفرض نفسها؛ مَنْ انتصر على مَنْ؟

لقد كان قائد القوات البريطانية في الخليج محقّاً عندما طلب من البريطانيين ان يقرعوا الاجراس، احتفالاً بالنصر في الخليج، لأن بريطانيا، بالفعل، انتصرت هي ومصالحها في المنطقة.

وكان الرئيس الاميركي جورج بوش محقاً، ايضاً، عندما هنّأ الاميركيين بانتهاء الازمة، وبالانتصار الساحق لقوات الحلفاء على العراق؛ وكان محقّاً كذلك عندما عبّر عن فرحته بأنه لأول مرة تتعاون اسرائيل وأنظمة عربية ضد «عدو مشترك» (يقصد العراق). ولفرحة الرئيس الاميركي ما يبرّرها اميركياً، لأنها فرحة بانتصار المصالح الاميركية والاستراتيجية الاميركية المقبلة على تأسيس نظام عالمي يخضع لسيادتها.

ولكن، عن أي انتصار ستتحدث الانظمة العربية التي شاركت في الحرب ضد العراق؟ وهل تجرؤ هذه الانظمة على التحدث عن النصر وفرحة النصر؟ وانْ فعلت ذلك، فما هي الانجازات التي حققتها؟ هل ستتحدث عن الانتصار في عملية تجويع الشعب العراقي؟ ام تراها ستتحدّث عن الانتصار بتدمير المدن والقرى والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في العراق؟ ام تراها تتحدث عن الانتصار في تدمير الجيش العراقي وابادة عشرات الآلاف من جنوده؟ وهل يكون تدمير ملجأ العامرية على من فيه من اطفال ونساء وشيوخ، انتصاراً للجيوش العربية المشاركة في الحرب؟ وهل يعد انتصاراً في نظرها احتلال جزء من اراضي العراق واثارة حرب اهلية بين مواطنيه، ومحاولة تجزئته الى دويلات طائفية واثنية؟ وهل سيكون انتصاراً في نظرها الاخلال بموازين القوى لمصلحة العدو الصهيوني، من خلال مساهمتها في تدمير قوة العراق التي كانت ترهب العدو، وتشكّل ورقة ضاغطة في اية تسوية